قدم عرضا مفصلا ناقدا لسيرة شعب بأكمله · وقوعه تحت نير الاحتلال ، ومعاناته لواقع هذا الاحتلال واستحالة تكيفه معه مهما حاول وبذل وتنازل مما يفهم منه بشكل واضح في النهاية ان الاحتلال الصهيوني هو الذي يرفض استمرار وجود هذا الشعب على ارضه ـ ولو في ظله وتحت هيمنته ـ ويبذل كل الجهود للتخلص من هذا الشعب لتظل الارض خالية مطواعة لمخططاته ·

هذه الصورة التي قدمها « سعيد » تشكل ايضا حجر الاساس في الصورة التي قدمها القاسم نفسه كشخص من شخوص روايته · فالصورة تتركز بكاملها على واقع فلسطين عام ١٩٤٨ ـ النكبة ـ واستمرار هذا الواقع حتى الان · واللوحة التي تمثل النكبة حرفيا يمكن تجميعها من الفصلين الاول « الانشطار » والثاني « الهاوية » من خلال عبارات مكثفة تصور هذا الواقع بوضوح أو توحي به بحدة وبلغة القاسم الشعرية التي تنساب على طول الرواية · فالناس منشغلون مرتبكون ، والنساء اللواتي كن يجدن الوقت والميل لابداء اعجابهن ـ فيما مضى ـ بهذا الفتى ما عدن مهتمات بذلك (اليوم لم ترمقني نساء العين باعجاب · لم اسمع تلك الغمغمات المثيرة ولم تكن هي في انتظاري عند المنعطف · المدارس مسكونة بالجنود اسمهم « جيش الانقاذ ») · « وكولد » تنعكس النكبة في ذهنه بصورة احتجاج وثورة على المفاهيم والقيم المتخلفة التي يتمسك بها والداه من ناحية (الله معنا ! الله معنا ! لماذا اذن يرضى الهكم هذا بان تهدم الطيارة بيت « دنيا » ؟ لماذا يأخذها الهكم مني ؟ لماذا يجعلها لاجئة ؟ هه ! الله معنا · الله يدافع عنا · كفاية ! كفاية !) ومن ناحية اخرى تنعكس على شكل حزن عميق مذهل (انا بعدك عصفور ممزق على الشارع العام ·· دوري مسحوق ·· معسته سيارات العساكر والسياح) ·

وحين يكون هادئا غير واقع تحت التأثير المباشر لفقد « دنيا » ـ فقد اعتاد حقيقة فقده « دنيا » ـ يقدم وصفا سريعا ولكنه ايضا مكثف ذو دلالات شاملة (١٩٤٨ ـ جموع النازحين تتدفق على « الرامة » من الشرق والغرب والجنوب جداول آدمية باهتة تصب في هذه البحيرة الراكدة ثم تتدفق عبر الشاطىء الزيتوني ·· بيد انها تتدفق في اتجاه واحد فقط ·· نحو الشمال ·· تتدفق نهرا بشريا داكنا يلهث ، يعوي وينتحب) ·

وعن جيش الانقاذ ايضا (جاءوا ليدافعوا عنا · فلماذا حولوهم الى مجرد خيارات مكبوسات في سيارة هاربة الى الشمال ؟) ·

هذه اذن مأساة القاسم جزء عذابه ولا وضوحه وتبدده الذي وضعه في اطار من « الليلك » كما وضع جميع الالفاظ التي تحمل اي شيء من مدلولات العذاب واللاوضوح والتبدد (الاشتباه الظن ، المتوقع ·· الضرب بالودع ، البصارة ، الهوروسكوب ـ كلها « ليلك ») ·

ومن هنا فان صرخة القاسم (الى الجحيم ايها الليلك) دليل رغبة عارمة في النفاذ من المأساة · رغبة في نفض غبار العذاب واللاوضوح والتبدد والتخلص من ربقتها ، تلك الصفات التي لازمتنا منذ زمن طويل (وكانت « دنيا تحسب فستانها الليلكي ، تلعب فيه وتنام فيه ، وفيه تذهب الى المدرسة) و « دنيا » ترمز هنا الى الشعب الفلسطيني ويمكن ان